تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم وإنما تعللوا بقولهم { مال هذا الرسول يأكل الطعام } يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه { ويمشي في الأسواق } أي يتردد فيها وإليها طلبا للتكسب والتجارة { لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا } يقولون : هلا أنزل إليه ملك من عند ا فيكون له شاهدا على صدق ما يدعيه وهذا كما قال فرعون { فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين } وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ولهذا قالوا { أو يلقى إليه كنز } أي علم كنز ينفق منه { أو تكون له جنة يأكل منها } أي تسير معه حيث سار وهذا كله سهل يسير على ا ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة { وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا } قال ا تعالى : { انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا } أي جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر وكلها أقوال باطلة كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك ولهذا قال { فضلوا } عن طريق الهدى { فلا يستطيعون سبيلا } وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال حيثما توجه لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضا .

ثم قال تعالى مخبرا نبيه أنه إن شاء لاتاه خيرا مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن فقال { تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك } الاية قال مجاهد : يعني في الدنيا قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرا كبيرا كان أو صغيرا قال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة : [قيل للنبي صلى ا عليه وسلّم إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيا قبلك ولا نعطي أحدا من بعدك ولا ينقص ذلك مما لك عند ا فقال : اجمعوها لي في الاخرة] فأنزل ا D في ذلك { تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك } الاية .

وقوله { بل كذبوا بالساعة } أي إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبا وعنادا لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال { وأعتدنا } أي أرصدنا { لمن كذب بالساعة سعيرا } أي عذابا أليما حارا لا يطاق في نار جهنم قال الثوري عن سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير { السعير } واد من قيح جهنم وقوله { إذا رأتهم } أي جهنم { من مكان بعيد } يعني في مقام المحشر قال السدي : من مسيرة مائة عام { سمعوا لها تغيظا وزفيرا } أي حنقا عليهم كما قال تعالى : { إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور * تكاد تميز من الغيظ } أي يكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها على من كفر با .

وروى ابن أبي حاتم : حدثنا إدريس بن حاتم بن الأحنف الواسطي أنه سمع محمد بن الحسن الواسطي عن أصبغ بن زيد عن خالد بن كثير عن خالد بن دريك بإسناده عن رجل من أصحاب النبي صلى ا عليه وسلّم قال : [قال رسول ا : من يقل علي ما لم أقل أو ادعى إلى غير والديه أو انتمى إلى غير مواليه فليتبوأ مقعده من النار ـ وفي رواية ـ فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا قيل : يا رسول ا وهل لها من عينين ؟ قال : أما سمعتم ا يقول { إذا رأتهم من مكان بعيد } الاية] ورواه ابن جرير عن محمد بن خداش عن محمد بن يزيد الواسطي به وقال أيضا : حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا أبو بكر بن عياش عن عيسى بن سليم عن أبي وائل قال : خرجنا مع عبد ا يعني ابن مسعود ومعنا الربيع بن خيثم فمروا على حداد فقام عبد ا ينظر إلى حديدة في النار ونظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل الربيع ليسقط فمر عبد ا على أتون على شاطىء الفرات فلما رآه عبد ا والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الاية { إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا } فصعق يعني الربيع وحملوه إلى أهل بيته فرابطه عبد ا إلى الظهر فلم يفق Bه .

وحدثنا أبي حدثنا عبد ا بن رجاء حدثنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف هكذا رواه ابن أبي حاتم بأسناده مختصرا وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا عبيد ا بن موسى أخبرنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن الرجل ليجر إلى النار فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض فيقول لها الرحمن : ما لك ؟ قالت : إنه يستجير مني فيقول : أرسلوا عبدي وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول : يا رب ما كان هذا الظن بك فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تسعني رحمتك فيقول : أرسلوا عبدي وإن الرجل ليجر إلى النار فتشهق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف وهذا إسناد صحيح .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن منصور عن مجاهد عن عبيد بن عمير في قوله { سمعوا لها تغيظا وزفيرا } قال : إن جهنم لتزفر زفرة لايبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه ترتعد فرائصه حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول : رب لاأسألك اليوم إلا نفسي وقوله { وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين } قال قتادة عن أبي أيوب عن عبد ا بن عمرو قال : مثل الزج في الرمح أي من ضيقه وقال عبد ا بن وهب : أخبرني نافع بن يزيد عن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم [أنه سئل عن قول ا { وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين } قال : والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط] .

وقوله { مقرنين } قال أبو صالح : يعني مكتفين { دعوا هنالك ثبورا } أي بالويل والحسرة

والخيبة { لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا } الاية روى الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن يزيد عن أنس بن مالك [أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادي ياثبوراه وينادون ياثبورهم حتى يقفوا على النار فيقول يا ثبوراه ويقولون ياثبورهم فيقال لهم لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا] لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان عن عفان به ورواه ابن جرير من حديث حماد بن سلمة به وقال العوفي عن ابن عباس في قوله { لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا } الاية أي لاتدعوا اليوم ويلا واحدا وادعوا ويلا كثيرا وقال الضحاك : الثبور الهلاك والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار كما قال موسى لفرعون { وإني لأظنك يا فرعون مثبورا } أي هالكا وقال عبد ا بن الزبعري : .

(إذ أجاري الشيطان في سنن الغـ ... ي ومن مال ميله مثبور)